الفصل الخامس

الغرائز[1]

يقع تصرف الإنسان أو سلوكه حسب حاجة الموقف الموجود أمامه ، حتى يلائم بين نفسه و بين طبيعة الأشياء ، أى البيئة المحيطة به ، مثال ذلك إذا أحسست بتيار من الهواء ، ووجدت أنك ستصاب بالبرد فإنك تقفل الباب .

فالأعمال الإنسانية استجابة لمطالب الحياة .

وتصرف الإنسان بإزاء هذه المواقف يتطلب أمرين : الأول الشكل الذى تدرك به الموقف وطبيعة المؤثر الخارجى ، والثانى القوى الداخلية ، أو « الميول » التى توجهك مختلف الوجهات ، حتى تستجيب على وجه ملائم لطبيعة الموقف الخارجى ، فالإحساس بتيار الهواء هو المؤثر الخارجى ، والقوة التى دفعتك إلى إغلاق الباب هى الدفاع عن النفس والهرب من الأخطار . ولما كان الإنسان يولد ضعيفاً خالياً من المعرفة ، لم يعلم كيف يسلك فى الحياة ولم يعلّمه أحد ، فلا بد أن يخرج إلى الوجود مجهزاً بكثير من القوى التى تدفعه إلى السلوك بما يحفظ حياته ؛ هذه القوى الكامنة ، والميول الموروثة ، والاستعدادات الفطرية هى التى تسمى « بالغرائز » .

كلما تقدمت السن بالطفل متدرجا نحو الشباب فالرجولة ، أخذ « يتعلم » كيف يتصرف فى هذه الحياة ، كيف يأكل و يشرب و يمشى و يلبس و يضطجع

---

(١) Instincts.

وينام ويكتب ويقرأ . . . . وأشباه هذه الأشياء التى يكتسبها الإنسان فى مجرى حياته ، ثم يأخذ فى ترديدها دون تفكير ، حتى ليصبح الإنسان فى أغلب أعماله كالآلة . ولكن إذا كانت أغلب أعمال الإنسان التى يؤديها مكتسبة بواسطة التعلّم كما رأينا ، فإن القوى الفطرية التى تولد مع الإنسان تظل كامنة مختبئة تؤدى وظيفتها ولكننا لا نراها .

وهناك لحظات تظهر فيها الغريزة بشكل واضح ، يجعلنا نتميزها بجلاء . لو ذهب أحد الرحالين إلى أواسط أفريقيا للاستكشاف ، وخرج يوماً خالياً من السلاح ، فتقابل وجهاً لوجه مع وحش ضار ، فإنه يجرى ، أو يرمى بنفسه فى النهر أو يتسلق شجرة أمامه ، إنه سيندفع إلى عمل كل هذا من تلقاء نفسه ، فهى غريزة الهرب التى تدفعه إلى ذلك . ولو أنك ركبت قطار السكة الحديدية وأنت ذاهب إلى مسافة طويلة ، ومعك كتب ومجلات لتسليتك فى الطريق ، فإنك مع كل هذا تنزع إلى الكلام مع غيرك من الركاب ومسامرتهم ، فهى غريزة الاجتماع التى تدفعك إلى ذلك ؛ ولو أنك رأيت زحاماً فى الطريق حول شىء من الأشياء لاندفعت وتوجهت للذهاب إلى المجتمعين ، لا كتناه حقيقة هذا الزحام حول الشىء الذى تجهله ، إنها غريزة الاستطلاع التى تدفعك إلى معرفة ما تجهل .

هذا عرض أولىّ يبين لنا أن الغرائز هى القوى الفطرية الدافعة فى حياة الإنسان ، وهى أساس السلوك عنده . ولكن هناك نوعاً من السلوك أطلقنا عليه اسم الفعل المنعكس ، فما هو الفرق بينهما ؟

الغريزة والفعل المنعكس :

الغريزة والفعل المنعكس كلاهما نوع من السلوك له مميزات يختص بها ، وقد قابل العلماء من قديم بينهما ، ولكن الأبحاث الحديثة فى علم النفس أثبتت أن الفرق بينهما ليس كبيراً . هذه المقابلات نجملها ونرد عليها فيما يلى : —

(١) الفعل المنعكس بسيط محدود ببعض عضلات الجسم ، بينما الغريزة معقّدة وتشمل الجسم كله . فاذا رأيت شيئاً ضاراً سيقع على العين ، فإنك تطبق الجفن ، هذا الفعل المنعكس لم يتعد العضلات المتصلة بالعين ، بينما إذا رأى الإنسان حشرة سامة أو شخصاً يريد أن يعتدى عليه فإنه يبتعد بكليته ويهرب ، فهنا نجد أن الجسم كله قد اشترك فى حركة الدفاع ، بينما تقتصر الحركة فى الفعل المنعكس على عضلات العين فقط . ولكن المؤثر فى الفعل المنعكس إذا كان شديداً فإنه يؤدى إلى حركات قد تشمل الجسم كله . فإذا وخزت شخصاً فى يده وخزاً خفيفاً تقلصت يده فقط ، أما إذا وخزته وخزاً حاداً ، فقد يؤدى ذلك إلى اتساع حدقة العين ، وصعود الدم إلى الوجه ، وإفراز « الأدرينالين » ، وإلى حركات دفاعية تعم الجسم كله . كذلك القط المنزوع مخه يموء ويخدش بمخالبه ويأتى بحركات غير متزنة ، نظراً لانعدام الجزء المسيطر على الحركات وهو المخ .

(٢) الفعل المنعكس يصدر عن الكائن رداً مباشراً على مؤثر خارجى ، بمعنى أنه يتوقف على وجود المؤثر الخارجى وطبيعته ونوعه . مثال ذلك إذا وضعت يدك فى ماء ساخن أكثر مما تحتمله يدك فإنك تستردها ، أو الأصح أن نقول إن يدك تتراجع ؛ أما الغريزة فإن أصولها تمتد إلى داخل الكائن ، مثال ذلك أن العصفور يرى طول العام أوراق الأشجار وفروعها ، ولكن رؤيتها لا تستثير

فيه الميل إلى جمعها حتى يبنى عشه ، و إنه لايبدأ فى ذلك إلا فى زمن مخصوص ، فهذا السلوك أى بناء العش صـدر عن ميل داخلى ؛ على أننا قد نجد أن الفعل المنعكس يكون صادراً عن الـكائن أحيانا لا رداً على مؤثر ، وأن الغريزة قد تتوقف على المؤثر الخارجى أحيانا أخرى ، ويتضح أثر الناحية الأولى فى الأفعال المنعكسة المتعلقة بشرط ، مثل إفراز اللعاب ومواء القط حينما يرى الأطباق تصف فوق مائدة الطعام عند الظهر . ويتضح أثر الناحية الثانية ، وهى توقف الغريزة على مؤثر خارجى فى كثير من المناسبات ، فظهور الغضب يستدعى وجود حائل يعترض رغبة الإنسان .

(٣) ومن أهم المعارضات التى تذكر فى باب الموازنة بين الغريزة والفعل المنعكس ، هى أن للغريزة غرضا تسعى إليه ، بينما الفعل المنعكس لا يحقق أى غرض ، و إنما هو فعل آلى بحت . أما أغراض الغريزة فيما يختص بالفرد ، فهى التغذية ، والهجوم ، والدفاع ، والبحث عن المسكن . وأغراضها فيما يختص بالنوع هى غريزة التناسل ، وتربية الصغار ، وأغراضها فيما يختص بالمجتمع هى الغرائز الاجتماعية ، فالغريزة وهى تسعى نحو هذا الغرض لا تخطئ أبداً ، حتى لقد وضعوا هذه الصفة تحت عنوان « عجائب الغريزة » . ومن الأمثلة المشهورة التى تضرب عادة فى هذا الباب ما يذكر عن الحشرات التى تشل حركة فريستها دون أن تقتلها ، وذلك لكى يتيسر لصغار الحشرة أن تتغذى بلحم طازج لا بلحم ميت ، وهذا هو السر فى أن الحشرة لا تطعن الفريسة إلا فى المراكز العصبية ، كأنها جراح ماهر يعرف مواضع تشريح الجسم .

ومع ذلك فكثيراً ما يكون للفعل المنعكس غاية مفيدة ، مثل معرفة بعض الحيوانات الثديية للنباتات السامة بواسطة الذوق . وفى التجربة أن القطة المنزوع

مخها ، إذا سمعت صوتا مفاجئا ، فإنها تتجه بعينيها نحو مصدر الصوت ، وهذا دون شك فعل منعكس .

أما فيما يختص بكمال الغريزة واتباعها غاية وسبيلا لا تخطئهما أبدا فهى خرافة تكذبها المشاهدة ، فقد أثبتت ملاحظة بعض العلماء فساد القول بأن الحشرة التى تشل فريستها لا تخطئ ، إذ أنها كثيراً ما تنحرف فى تسديد الطعنة ، وكثيراً ما تصيب الفريسة فى مقتل ، ومع ذلك فإنها تقودها ميتة ، ويتغذى الصغار منها وهى على هذا النحو .

والخلاصة من كل هذا هو أن الفرق بين الغريزة والفعل المنعكس ليس كبيراً ، بحيث يترك فجوة عميقة بينهما ، بل هو فرق غير محسوس تميزه درجة تعقد السلوك فى الغريزة ، وبساطته فى الفعل المنعكس .

مميزات الغريزة :

تمتاز الغريزة بالميزات الآتية :

(١) الغريزة نوعية (Spécificité) :

ومعنى ذلك أنها واحدة بالنسبة لجميع أفراد النوع من جنس واحد ، فلكل نوع غرائزه التى تميزه عن غيره ، مثال ذلك البيوت التى تنسجها العناكب ، فكل صنف منها ينسج بيتا بشكل مخصوص ، مثل تلك التى تنسج البيوت فى زوايا الحيطان .

هذه الوحدة فى النوع ليست مطلقة ، إذ أن هناك فوارق شخصية ، لأن الأفراد لا يتشابهون إلى حد التطابق . ولكن هناك صفات أساسية ثابتة هى التى تسمح لعالم الحيوان أن يميز الأنواع المختلفة منه .

كذلك ليست الغريزة ثابتة على الزمن ، فالغرائز تصل إلينا عن طريق الوراثة ، وهى اتصال الأجيال بعضها ببعض ، ويحدث تغيير مع الزمان خلال هذا التطور ، ولكنه بطىء غير محسوس .

وقد تغير بعض أنواع الحيوان من مسلكها فيما يتصل ببعض المظاهر الخارجية للغريزة ، ومن الأمثلة على ذلك ما شوهد من أن بعض العصافير استبدلت بالمواد التى تبنى بها عشها مخلّفات من الصناعات الإنسانية ، مثل عيدان الثقاب القديمة ، ومخلفات الساعات بالقرب من مصنع لها .

(٢) الغريزة فطرية (Innéité) .

وهذه من أهم الصفات التى تميزها ، وإذا نفينا هذه الصفة عنها فإننا ننفى بذلك وجود الغريزة نفسها . وبعض الفلاسفة قالوا إن الغريزة ليست فطرية فإن « بسكال » يقول : « إن الطبيعة عادة أولى » ولكن الواقع ينكر ذلك ، إذ يكفى أن تنظر إلى الإنسان أو ضروب الحيوان لتحكم بما يخالف ذلك القول . فالطفل الحديث الولادة ليس فى حاجة إلى « التفكير » ليصيح أو يرضع ، فهو يصيح كلما أحس بألم ، وهو يمص كل جسم غريب يلامس شفتيه .

هذا السلوك وأشباهه يتحقق من بداية الأمر ، فالغريزة تخلق كاملة ، لايحتاج الكائن إلى التعلم والكسب والتدريب لتأدية العمل . وإذا رجعنا إلى الحيوانات الثديية المنحطة ، العاجزة عن تكوين هذه الأعمال بالعادة أو الكسب ، نجد أنها تؤديها كذلك ؛ فليس القط فى حاجة إلى من يعلمه اصطياد الفيران ، وليس الطير فى حاجة إلى من يعلمه بناء العش .

ولا يجب أن نفهم من فطرية الغريزة أنها تظهر مع ظهور الكائن إلى الوجود ، فكل غريزة تظهر فى الوقت الملائم لها ، مثل الطيور المهاجرة التى لايظهر عندها

هذا الميل إلا فى وقت معين من السنة . ومن التجارب اللطيفة ذات الدلالة فى هذه الناحيـة تجربة القط الذى ربى منذ صغره مع الفأر ، فإنه لايظهر نحوه أى اهتمام إلا بعد مضى أربعة أسابيع ، وحينئذ يظهر عند القط هذا السلوك المعروف فجأة ، وهو المطاردة واللعب مع الفريسة ، والزمجرة ، ثم قتل الفأر .

وليس يلزم فى فطرية الغريزة أن تـكون ثابتة غير قابلة للتغيير ، إذ أن العادة كثيراً ماتطغى على الغريزة وتغيّرها .

و إذا شئنا أن نتبيّن الغريزة الخالصة ، فلابد لنا من الرجوع إلى الحيوان المنحط.

والأصـل فى الغريزة أن تتحقق بالفطرة دون حاجة إلى تعلم ، وتجربة « سبالدنج Spalding » واضحة فى هذا الصدد ، كان ذلك فى عام ١٨٧٣ حين فـكر « سبالدنج » هـل يطير الطير عن فطرة أو عن تعود . ذلك أن آباء الطير تدفع صغارها إلى الطيران ، وتدربها ، ويكتسب الصغار منها حركة الطيران بالمحاكاة ، لذلك أحضر « سبالدنج » بعض صغار الطيور الحديثة الفقس ثم حبس كل واحد منها فى قفص على حدة ، ولم تـكن الأقفاص من السعة بحيث تسمح لها بتحريك أجنحتها ، ولما نبت ريشها وحان موعد طيرانها أطلقها ، فإذا بها تطير وتحرك أجنحتها لأول وهلة كغيرها من الطير تماما . فهذه تجربة عظيمة الدلالة فيما يختص بفطرية الغريزة وثباتها .

ولـكن من النادر أن نعثر على الغريزة ثابتة بهذا الإطلاق ، فالطيور المغردة لاتغرد إلا إذا سمعت أترابها تغنى ، و إذا حبست عن غيرها من نوعها لم تغرد .

وتلعب الذاكرة دوراً كبيراً فى أداء الحركات الغريزية ، فالفرخ حين ينقف من البيض ، ينقر فى الأرض كل مايصادفه من الحب والديدان والحشرات ، كما ينقر الحصى ، وأعين الأفرخ الأخرى ، وكلما تقدمت السن بالفرخ لايلتقط كل

شيء ، ولذلك فإنه يصدف عن بعض الديدان الضارة .

مما سبق يتضح لنا أن الغريزة تظهر فى صورتين :

١ — الغريزة الخالصة المصحوبة بحركات تظهر كاملة دون حاجة إلى كسب وهذه الصورة نجدها على الأخص عند الحيوانات الدنيئة .

٢ — الدوافع الغريزية التى هى أساس السلوك ، يبنى عليها الأفراد مسالك مختلفة ولكن الأساس واحد .

(٣) الغريزة عمياء :

تتميز الأعمال الإرادية عند الإنسان بأن هناك غرضاً يستدعى الشعور به اتباع طريق يوصل إليه ، فالغرض هو الذى يملى على الإنسان اختياره الطريق . يشعر المريض بالمرض ، فيمتنع عن تناول الطعام حتى لا يزداد به المرض ، وإذا أراد شخص أن يقضى الليل فى التسلية فإن هذا الغرض هو الذى يملى عليه الذهاب إلى دار الخيالة .

كذلك اصطياد الفريسة وشل حركتها ، ووضعها فى الممر بجانب البيض هو طريق لهذا الغرض ، وهو أن تكون مؤونة للصغار حين تنقف البيض وتخرج منه .

ولكن الحيوان لا يدرك أوْ لا يشعر بالغرض الذى يحققه العمل الغريزى . والدليل على ذلك أن تعديل الظروف الخارجيـة لا يدفعه إلى تعديل العمل الغريزى ، بحيث يلائم هذه الظروف ؛ هذا ما نعنيه بقولنا إن الغريزة عمياء .

مثال ذلك أن النحلة التى تملأ الخلية بالعسل ، تظل تملؤها على الرغم من وجود ثقب صغير فى قرار الخلية يسيل منه العسل فلا تمتلئ أبدا .

يذكر « فابر » مشاهدته عن حشرة تشـل حركة فريستها ثم تجرها إلى

جحرها ، وتتركها بالباب ، ثم تدخل الجحر ، وتدور فيه كأنها تتحق من عدم وجود غريب فى داخله ، ثم تخرج ثانياً لتُدخِل الفريسة . فتربص « فابر » لها وكلما دخلت الجحر أبعد الفريسة عنها ، فتذهب الحشرة ، وتجر الفريسة وتتركها بالباب ، ثم تدخل الجحر وحيدة وتتأمل فيه ، ثم تخرج ، فإذا بالفريسة بعيدة عن الجحر ، فتبدأ هذه العملية من جديد ، وظل « فابر » يردّد هذا العمل عدداً كبيراً من المرات ، والحشرة لا تزال تكرر هذا السلوك . ولكن « فابر » يذكر فى مكان آخر « إن حشرة أخرى لم تكن فى بلاهة الأولى ، فقد تناولت فريستها بعد التجربة الثالثة ، ودخلت بها إلى الجحر » .

ومن هذا يتضح لنا أن التجربة الشخصية تعدل من العمل الغريزى . وعلى ذلك فإن الغريزة ليست عمياء على الإطلاق .

التقسيم الثلاثى للغريزة :

الغريزة من الظواهر النفسية وقد ذكرنا فى تحليل الظاهرة أن لها ثلاثة أوجه : إدراك ووجدان ونزوع . وهذا الكلام ينطبق على الغريزة .

فإذا داس أحد على قدمك ، يحدث إدراك ووجدان ونزوع . فتدرك أن هناك من داس على قدمك ، وتدرك اتساخ الحذاء ، وهذه هى الناحية الإدراكية ثم تشعر بالألم وتنفعل بالغضب ، وهذه هى الناحية الوجدانية ؛ ثم تنزع إلى ضرب من داس على قدمك ، أو إهانته بالكلام بصوت عال ، وقد لا تفعل شيئاً ، إذ يظل النزوع كامنا دون أن يتحقق .

وفى كل غريزة نجد هذا المظهر الثلاثى ، ولكن أوضح الثلاثة هو النزوع . وهناك من يقول بأنه الانفعال ، لأنه فى بعض الأحيان يكون هو الأوضح ، ولكن

الغالب هو الجانب النزوعى ، ولذا يميل الكثيرون إلى تسمية الغريزة بالمظهر النزوعى منها ، فيقولون غريزة المقاتلة دون الغضب ، والهرب دون الخوف .

والجانب الوجدانى له أهمية كبيرة فى سلوك الكائن ، فالقطة تنزل إلى الحقل وتقف بين الأعشاب ، فترى بعضها يتحرك ، فتقف القطة وتقترب بحذر ، وتبحث ، فإذا رأت طائراً هجمت ، و إذا رأت كلباً فرّت ، فسلوك القطة هنا يبدأ بالاهتمام المصحوب بالانتباه والاستطلاع ، ولكن إقدامها أو تراجعها هو نتيجة السرور أو الخوف .

ولا يلزم أن يكون الجانب الإدراكى من الغريزة شيئاً محسوساً ، فقد يكون تذكراً لشىء سالف حصل لك فيما مضى ، و يسبب لك الدافع الغريزى والانفعال . فإذا تذكرت المشادة التى حصلت بينك و بين صديقك وتذكرت الألفاظ الجارحة التى وجهها إليك ، فإنك تنفعل انفعال الغضب ، وتنزع إلى المقاتلة ، فتظهر عليك آثار هذه الغريزة واضحة جلية ، حتى أن جليسك يلحظ منك هذا و يعجب . وهذا كثير الوقوع ، لأنك تجد شخصاً يجلس هادئاً فيتذكر منظراً مخيفاً فيخرج عن هدوئه ، و يتكلم فى صوت عال « أعوذ بالله ... » وهذا هو المظهر النزوعى للخوف والدهشة .

وقد لا يكون الجانب الإدراكى شيئاً محسوساً ، ولا شيئاً تتذكره ، ولكن قد يكون صورة خيالية تبتدعها فى ذهنك ؛ فإذا تخيلت فى الظلام عفريتاً ، فإنك تضطرب وتخاف وتطلق ساقيك للريح .

فلا بد للغريزة أن يكون هناك مؤثر خارجى يستثيرها ، قد يكون شيئاً محسوساً خارجياً ، وقد يكون ما تتذكره أو تتخيله . ولا بد من وجود الإدراك حتى تتم الغريزة ، فإذا رأى الطفل الصغير ثعباناً ولم يدرك أنه سيلحق به أذى ، فإنه لن

يخاف منه ولن يهرب . فالمهم هو حصول الإدراك سواء أكان حقيقياً أم وهمياً . فإذا هجم عليك لص فى يده سكين هربت ، و إذا توهمت فى الظلام وجود لص هربت أيضاً .

فالغريزة تتوقف إلى حد كبير على الجانب الإدراكى ، و إذا اعترض بعض الغرائز وقت ظهورها ما يمنع تنفيذها فإنها تموت إلى غير عودة . فالفرخ الصغير عنده مَيْلان ، ميل إلى الاستئناس وميل للخوف . فإذا فصلته منذ الصغر وحيدا فإنه يميل إلى الاستيحاش و ينفر من الناس ، بينما إذا عودته منذ الصغر أن يتصل بغيره ، فإنه يميل إلى الاستئناس حين يكبر .

إعلاء الغريزة :

للجانب النزوعى من الغريزة شطران ، الأول القوة الدافعة ، والثانى طريقة تنفيذ ما تدعو إليه هذه القوة . وقد وجدنا أن الغريزة عند الحيوان ، على الأخص ضروب الحيوان الدنيئة ، تتحقق فى الغالب كاملة عند أفراد النوع بصورة واحدة كالنمل يبنى خليته السداسية بشكل واحد لا يتغير . فهو يحقق الميل الغريزى لبناء الخلية ، وطريقة بنائها ، بشكل واحد . والفرق بين الإنسان والحيوان فى هذه الناحية ، هو أن الإنسان له حرية اختيار الطريقة التى ينفذ بها الميل الغريزى ، فلدينا جميعاً ميل إلى الهرب وتجنب الأخطار ، ولكن شخصاً يهرب جرياً ، وثانياً مختفياً ، وثالثاً متسلقاً شجرة ، ورابعاً رامياً بنفسه فى الماء ؛ بينما النعامة حين يطاردها الصيادون تضع رأسها فى الرمل ، زاعمة أنها ما دامت لا ترى الصياد فإن الصياد لا يراها . ويحقق الإنسان الأول[1] دوافعه الغريزية بصورة متسقة

---

(١) L'homme primitif.

تقريباً ، وقد هبطت إلينا هذه الصورة عن طريق الوراثة ، فالأصل فى غريزة المقاتلة أن تظهر فى صورة الصراع ، والضرب باليدين أو القدمين ، والعضّ والصراخ ، ثم أصبح الناس فى المدنية الحديثة ، وإذا بهذه الأعمال الغريزية لاتتفق وإياها ، فماذا هم فاعلون ؟ هذه مشكلة صعبة الحل وهى : وجود الدوافع الغريزية التى تريد أن تجد لها مخرجا من جهة ، والإنسان فى الوقت الحاضر لايريد تنفيذها لأنها تضره ، ولا تتفق مع المدنية الحديثة من جهة أخرى . فصورة المقاتلة التى ذكرناها كريهة حقاً ، ولكن القوة الدافعة إلى الكفاح فطرة ثابتة فى النفس ، لا يمكن محوها أو استئصالها . هذه القوة وغيرها من الميول الفطرية مَثَلها مَثَل ماء النهر المتدفق الدائم الجريان ، إذا وضعت سداً يحول دون الماء فإنه لا يقفه ، بل يحدث إما أن يطغى الماء الدافق على السد فيحطمه ، وإما أن يكون السد منيعاً فيتسرب الماء فى مسارب خفية ينصرف فيها ، وكلا الأمرين مضر . فإذا وقفت أمام الطفل الصغير تمنعه من الحركة والكفاح ، فإنك بهذا تضع سداً من التقاليد الاجتماعية يحول دون انطلاق القوة الكامنة عند الطفل فى مجراها الطبيعى ، وحينئذ إما أن يثور الطفل فيخرج شريراً مشاكساً ، وإما أن يهدأ فى الظاهر ولكن قوة الكفاح تنصرف إلى مسارب معوجة وطرق غير مستقيمة ، فيضرب إخوته الأصغر سناً دون ذنب أو يتلف الأشياء التى تقع بين يديه .

يجب إذن أن نوفق بين كل هذا ، أما القوة الدافعة ، وهى الشطر الأول من الغريزة ، فلا بدأن نتركها كما هى لأنها فطرية ولا يمكن محوها أو تغييرها ، أما تحقيق الغريزة فلنا معه شأن آخر ، ذلك أننا نستطيع أن نعدل مجرى الغريزة ونتسامى بها ونوجهها وجهة أخرى ، ونتعالى بها عن مجراها الطبيعى إلى ما هو خير للإنسان ، وما فيه نفعه ، وما يتفق والمدنية الحديثة ، وهذا مايسمى فى علم النفس بالإعلاء .

على هذا نستطيع أن نوجه غريزة الكفاح وجهة رياضية كالمصارعة ولعب كرة القدم ، أو مكافحة مشاكل الحياة التى تعترضنا والانتصار عليها ، إلى غير ذلك مما سيأتى ذكره بالتفصيل فيما بعد .

الغرائز الإنسانية :

من العسير تمييز الغريزة عند الإنسان ، لأن فصل الميول المكتسبة عن الفطرية كثير الصعوبة بالنظر إلى ما طرأ على الانسان من آثار الحضارة ، وما اكتسبه عن طريق المحاكاة والتقاليد والعادات والعقائد . فلا بد لنا فى البحث عن الغريزة الخالصة من هذه الآثار المكتسبة ، أن نرجع إلى الطفل الصغير ، أو الإنسان الأول . والطفل أوضح فى الدلالة لأنه لايزال بعيداً عن تأثير الكسب والعادة (وإذا استطعنا أن نعزله ، كما فعل « سبالدنج » مع صغار الحيوان ، كان ذلك أفضل) . ولكن هذه الطريقة لا تفيدنا إلا فى العهد الأول من عهود الطفولة ، إذ يندرج الطفل بعد ذلك فى المجتمع والبيئة . فإذا فعلنا ذلك فإننا نجد بعض الأعمال كالرضاعة ، والخوف من الظلام ، والخوف من الضوضاء والأصوات الشديدة ، كل ذلك فطرى عند الطفل .

وغرائز الإنسان كثيرة ، وقد اختلف العلماء خلافاً كبيراً فى تصنيفها ، ولكننا إذا قسمناها تبعاً لموضوعها فإننا نحصل على الثبت الآتى .

ذلك أن الحيوان يحتاج لحفظ حياته أن يتغذى ، وأن يدافع عن نفسه ، وأن يعرف ويميز الوسط المحيط به ، وأن يَنْسِل . وإذا كان الحيوان اجتماعياً فلا بد أن يتصل بأفراد نوعه . هذه الغرائز المختلفة توجد كذلك عند الإنسان لأنه نوع من الحيوان .

غرائز البحث عن الطعام :

ليس شك فى أن الطفل يؤدى كثيراً من الوظائف العضوية بالفطرة ، وذلك نظراً لحاجة الجسم الماسة إليها ، وبدونها تتعطل الحياة ؛ من هذه المطالب ما يؤديه الجسم دون تدخل الإرادة ، كالتنفس والهضم وإفراز الفضلات . والطعام من الضرورات الأولى التى لا يمكن أن يستغنى عنها الإنسان أو الحيوان ، ويكفى أن تتصور الإنسان فى حالة مجاعة لترى كيف يفقد كل معانى الإنسانية التى اصطلحنا عليها ، حتى لقد يصل به التوحش أن يأكل لحم أخيه الانسان .

والرضاعة عند الطفل فطرية ، وهو فى مبدإ الأمر يضع كل ماتقع عليه يده فى فمه ، حتى لقد يمص أصبعه . وكثيراً مايصطحب الإنسان هذه الغريزة الأولى معه طول حياته ، وهذا هو السبب فى أن كثيراً من الأشخاص يقرضون أطراف أصابعهم ، أو يضعون أقلام الرصاص فى أفواههم . . . . الخ . ويرى « فرويد » أن السرور من التدخين يرجع إليها .

ويتصل بالبحث عن الطعام غريزة الصيد . والحيوان على وجه العموم يحصل على غذائه عن طريق الصيد ، وكذلك كان الانسان الأول ، ولكننا لانلجأ إلى ذلك فى الوقت الحاضر ؛ ومع ذلك فالميل إلى الصيد والمطاردة كثيراً ما يظهر عند الإنسان المتحضر . فالطفل يلذ له أن يقتنص الحشرات فى الحدائق ، وأن ينصب الفخاخ للعصافير ، وأن يصطاد السمك . ومن اللهو الذى يفتن كثيراً من أفراد الطبقات الرفيعة صيد الحيوانات البرية .

غرائز الدفاع :

نستطيع أن نقسم الدفاع إلى مجموعتين ، الأولى الدفاع عن الجسم فسيولوجيا ، ويتصل بهذا النبذ أو النفور والتقزّز ، والثانية الدفاع لحفظ الحياة ، وذلك يكون بالهرب أو الكفاح .

١ — النفور والتقزز[١] :

الأصل فى التقزّز أن يكون دفاعاً عن الجهاز الهضمى . فالطفل يضع فى فمه كل شىء يصادفه ، ولكنه يبعد عنه كل ما لا يستسيغ طعمه أو يكره رائحته ، ثم ينتهى الأمر بالانسان أن يتعود التقزز من ألوان معينة من الطعام . لذلك تجد كثيراً من الأشياء تؤكل فى جهة ، ويُتقزز منها فى جهة أخرى . مثال ذلك أن الصينيين يأكلون لحم الكلاب ويستطيبونه ، بينما نحن نتقزز منه .

ويتصل بالتقزز بعض المظاهر الجسمية كالبصق .

أما النفور فهو الابتعاد عن الأشياء التى تضر سطح الجلد ، مثل وقوع بعض الحشرات الطفيلية كالذباب وغيره على الوجه . ويقال إن الأصل فى النظافة يرجع إلى هذه الغريزة ، ولكن هذا الرأى مشكوك فيه ، لأن الإنسان إذا تُرك وشأنه فانه لا يبدى أى ميل للنظافة .

فالتقزز والنفور مَيْلان الغرض منهما الدفاع العضوى ، ويتصل بهما الاحتقار ، وحينئذ تتشكل ملامح الوجه بهذه الصورة المعروفة ، وكثيراً ما يبصق الإنسان لإظهار الاحتقار .

٢ — الخوف والهرب :

الهرب قوة الغرض منها الدفاع عن الكائن بأكمله ، لا عن جزء من الكائن .

---

(١) Répulsion, dégoût.

فتقلص اليد عند وخزها بدبوس لايعد دفاعاً عن الجسم بأجمعه ، بل فعلا منعكساً

ووسائل الدفاع عند الخوف ثلاث : الصياح ، والهرب ، وتوقف الحركة . فالطفل الصغير يصيح ، وحينما يكبر يهرب أو يقف فى مكانه ، وكلما تقدمت به السن تعلم أن يحبس الصياح .

ومن بواعث الخوف عند الطفل الصغير الضوضاء ، والأصوات العالية المفاجئة ، والاشفاق من الوقوع ، والظلام والوحدة ، ورؤية بعض الحيوانات كالثعبان والعنكبوت . والانسان الأول والحيوان يخافان من الظواهر الطبيعية ، مثل الرعد القاصف ، والبرق اللامع ، والعواصف الثائرة .

وأغلب مؤثرات الخوف عند الانسان اكتسبها بالتعود ، ونستطيع أن نرجعها إلى كل مايلحق الأذى بالإنسان . وقد يكون الخطر حقيقيا كما يكون وهمياً ، والخطر الحقيق قد يكون مادياً مثل وجود الشخص فى منزل يحترق ، وقد يكون معنوياً كخوف الموظف من الرفت ، والطالب من الرسوب فى الامتحان . أما الخوف من المؤثرات الوهمية فأساسه الخرافات التى تشيع فى أذهان العامة ، مثل الخوف من الأشباح والعفاريت .

هذا وقد تغيرت المؤثرات التى تدفع إلى الخوف فى العصر الحاضر . فالإنسان الآن ، يخاف من الأمراض المعدية ، ويخشى سقوط مركزه الاجتماعى ، ويهرب من المجتمع إذا اضطر إلى مخالفة تقاليده .

٣ — الكفاح والغضب :

ليس الهرب الوسيلة الوحيدة للدفاع عن الكائن ، بل هناك وسيلة أخرى هى الكفاح ، وهو قوة تدفع الإنسان إلى أن يقاتل ويقاوم إذا رأى هناك خطراً عليه ، أو مسه أحد بسوء ، وذلك إما باغتصاب ما يملكه الشخص ، وإما بحرمانه

الوصول إلى رغبة ، و إما محاولة التغلب على شيء من الأشياء .

ومظهر غريزة المقاتلة حين تتحقق كاملة يكون فى صورة الصراع ، والضرب باليدين أو القدمين ، والعض ، والصراخ .

وهى أوضح عند الإنسان غير المتمدين والطفل والحيوان . فإذا اقتلع أحد زراعة فلاح ضربه بالفأس دون أى تفكير . و إذا أخذت لعبة الطفل ، أو حرمته تنفيذ رغبة يريدها ، همّ بضربك أو أجهش بالبكاء . و إذا اعتديت على قطة فى بيتك ، بأى نوع من أنواع الاعتداء ، زمجرت غضباً ، وأخذت تموء مواء الشر والمقاتلة ، وحاولت أن تهجم عليك .

وقد أسدلت التقاليد العصرية رداء كثيفاً يحجب هذه الصورة الوحشية من المقاتلة ، فأصبح الإنسان يدفع العدوان بحجة اللسان ، وانصرف الأمر من الاعتداء البدنى إلى الانتصار المعنوى ، فيستعمل المقاتل طرق الدس والإيقاع فى الخفاء ، والتشهير بين الناس بالشتائم والهجاء ، وتربص فرصة ضعف الخصم لإلحاق الأذى بأملاكه أو عرضه أو ماله أو مركزه ، إلى آخر هذه الألوان من الرياء والمداهنة . وقد تقع المقاتلة فى الاصطلاح كالمبارزة ، ولكن أغلب الدول منعتها فى الوقت الحاضر . وكثيراً ما يمزق الانسان هذا الغشاء الرقيق من العادات فيرجع إلى حالة الوحشية الأولى منفذاً المقاتلة بالعدوان ، وذلك إذا كان باعث الغضب قوياً . كذلك انتقل تحقيق صور المقاتلة من يد الفرد إلى سلطان الجماعة ، التى تحكم على المعتدى بقوة القانون . ومع ذلك فحكم القضاء حتى ولو كان قاسياً ، فإنه لا يشبع رغبة الشخص فى المقاتلة .

والمغالبة هى الصورة المعنوية لغريزة الكفاح ؛ فمغالبة صروف الحياة ، وحلّ المشاكل العلمية ، ومعارضة شهوات النفس إلى غير ذلك ، هى ألوان من الكفاح ،

وكأنها ضروب من المقاتلة ، لأن الإنسان يقف أمام أعداء يحاول الانتصار عليهم . فصروف الحياة ، ومشاكل العلم ، وشهوات النفس ، هى أعداء تَحُول دون رغباته .

ومؤثرات هـذه الغريزة هى محاولة الإضرار بالإنسان بأى شكل من الأشكال . وتبتعث عند الحيوان إذا هوجم أو حُرِم من طعام ، أو اعتدى على صغاره . ويقاتل الإنسان كل من يتدخل فى أموره وأعماله ، ويكافح كل عقبة تقف فى سبيله .

وقد يكون مثار الكفاح جماداً ، فقد تكتب رسالة لايعجبك إنشاؤها فتمزق أوصال الورق فى حدّة وعنف . والنجار الذى يعسر عليه دق مسمار ، تجده يضرب بالقدوم الأرض ، ويرمى الآلات التى يعمل بها بعيداً .

وقد يقاتل الإنسان دون سبب ظاهر ، كالطفل الذى يضرب أخاه الأصغر أو الحيوانات المستأنسة الموجودة فى المنزل ، أو كصاحب العمل الذى ينفجر غضباً معتدياً على عمّاله ؛ والباعث هنا ، طبقاً لرأى علماء التحليل النفسانى وعلى رأسهم « فرويد » يرجع إلى عقدة نفسية مستورة فى اللاشعور ، تحاول الظهور بين حين وآخر فى هذه الصور التى ذكرناها . فالطفل الذى يضرب أخاه الأصغر ، يكون والده قد ضربه بقسوة قبل ذلك ، ولم يستطع أن يقف أمام والده موقف الندّ ويرد عدوانه ، فتتسرب هذه القوة نحو أخيه .

وإذا كان الكفاح فطرياً لانستطيع أن نمحوه من النفس ، أو نقف فى سبيله لأنه ينقلب عند ذلك شراً ، فكيف نتسامى بهـذه الغريزة إلى خير الانسان ونفعه وما يتفق والمدنية الحديثة ، دون أن نتركها تجرى فى مجراها الطبيعى ، فى صورة المقاتلة وسفك الدماء ؟ وكيف نسمو بها عند الأمم التى تسلك مسلك الأفراد فتقتص لنفسها بالحرب ؟

تمكن هذه المقاتلة فى صورة رياضية ، بدل أن يقاتل الانسان أخاه ، فنشبع الغريزة من جهة ، ونكتسب صحة ورياضة من جهة أخرى ، وهـذا هو السر فى انتشار الألعاب الرياضية السامية الغرض . فالملاكمة والمصارعة ولعب كرة القدم والسباحة . . . أخ كلها تعتبر منافذ تنساب منها مياه الدافع الغريزى للمقاتلة . ونستطيع أن نستغرق قوة الكفاح فى مغالبة المشاكل العلمية ، فننتصر على الجهل ونكتشف مجاهل العلم فى جميع نواحيه . والدفاع عن المبادئ الفكرية والدينية والسياسية والخلقية والوطنية يحتاج إلى كثير من الجهاد والكفاح والمغالبة .

والغرض من الكفاح والمقاتلة هو الدفاع عن النفس الذى يؤدى إلى حفظ الحياة . ومع تعارض الكفاح والهرب ، فكلاهما دفاع عن النفس ، ومن اجتماعهما يحدث اتزان تخرج منه الحياة المثلى للإنسان ، أى يهرب وقت الهرب ، ويكافح وقت الكفاح . وتتجه شخصية الانسان تبعاً لتغلب إحدى الغريزتين ، فمن يسود عنده الكفاح يسمى شجاعا أو متهوراً ، ومن يتغلب عنده الهرب يسمى جباناً .

الاستطلاع :

حب الاطلاع قوة تدفع الإنسان إلى أن يتعرف المجهول . وهذه الغريزة فى الأصل ضرورية لمعرفة البيئة المحيطة بالإنسان ، إذ أن سلوكه يتشكل حسب هذا الإدراك . ويصحب الاستطلاع الانتباه ، الذى يعتبر تمهيداً للإدراك ، فيحدق الإنسان عينيه ويرهف أذنيه ، ويفتح حواسه جميعاً لاستقبال المعرفة الجديدة . فالطفل الحديث الولادة يتبع برأسه وعينيه الأشياء التى تتحرك أمامه . ولا يكتفى الإنسان بمجرد المشاهدة ، بل يلجأ إلى التنقيب للوصول إلى اكتناه الحقائق . فيكسر الطفل لعبته ويفككها ويمزقها ، وقد تراه يعذب حيواناً صغيراً ، فيشده

و يجذبه ، والحقيقة هنا أنه يلبى دافع الاستطلاع . والطفل نزّاع إلى تفسير الظواهر التى تقع تحت خبرته ، وهو شديد الظمأ إلى المعرفة ، ولذا كان كثير السؤال عن أسباب الأشياء ، فيصوغ أسئلته فى ثوب التعليل الذى يبدأ بكلمة « لماذا » . وكثير من أسئلته محرجة ، لأن العلم لم يصل إلى تفسيرها ، كأن يقول « لماذا تذوب قطعة السكر فى الماء بينما الملعقة لا تذوب ؟ » وفى كثير من الأحيان يسأل الطفل لمجرد السؤال ، لا يطلب جواباً بل هى طبيعة الاستطلاع التى تدفعه إلى ذلك ، والدليل على هذا أنه يسألك فإذا شرعت فى الإجابة انصرف إلى لعبته دون أن يهتم بك .

هذه الغريزة هى أساس العلم والمعرفة ، فالعلوم المختلفة والمكتشفات المتعددة والمخترعات المتباينة هى نتيجة هذه الفطرة . لذلك يجب أن نفسح المجال لظهورها ، بأن نسهل التعليم ، وننظم المحاضرات والمناظرات ، ونكثر من دور الكتب ، ونعنى بإصدار الكتب والصحف ، و إقامة المتاحف والمعارض والمؤتمرات ، وتشييد المعامل التى أصبحت لا غنى للعلم عنها .

الاجتماع :

الإنسان حيوان اجتماعى ، لا يستطيع إلا أن يعيش مع غيره من بنى الإنسان . والاجتماع غريزة فطرية . تأمل فى صميم نفسك تجد أنك تحب الحياة فى رفقة غيرك وتكره العزلة . و إنك لتسعى إلى الوجود بين الناس ولو أنك لن تستفيد منهم شيئاً . انظر إلى المتفرج فى ملعب كرة القدم ، إذا كان وحيداً منفرداً لا يوجد متفرج غيره بجانبه ، لا يدخل إلى نفسه السرور بخلاف ما إذا كان الملعب حافلاً بالمتفرجين . والعزلة قاسية ، إذا طالت فإنها قد تؤدى إلى الجنون ، ولهذا كان أشد أنواع الحبس قسوة هو السجن الانفرادى . وقد يعترض بعض الناس بأن هناك

من يميل إلى العزلة كالنسّاك ، وهؤلاء قلة نادرة لا نأبه لها ، لأن أحكامنا تصدرها على أغلبية الناس . والحقيقة أن أسبابا قوية هى التى تدفع المعتزل إلى الهرب من الناس ، وفى عقول هؤلاء مرض فى الغالب ، فهم شواذ .

ومَثَل الإنسان ، مَثَل كثير من الحيوانات الاجتماعية ، لايختلف عنها فى شىء من هذه الناحية ، أى حب الاجتماع .

السيطرة والانقياد :

هما فطرتان متصلتان بالغريزة السابقة . ذلك أن أفراد المجتمع لا يتشابهون تشابها مطلقا ، بحيث يكونون على نمط واحد ، بل يتدرجون فى سلم القوة والضعف ، والسيطرة والانقياد ، والرياسة والخضوع ؛ وهذا هو الحال أيضا فى المملكة الحيوانية ، فللنحل ملكة وجنود وعمال .

هـذا النظام المتدرج فى المجتمع هو سر صلاحه ، فلو أن الجميع كانوا بقوة واحدة لتعارضت هذه القوى ، ولكن البعض يميل إلى السيطرة ، والبعض الآخر إلى الخضوع . هبك تركت عدداً من الأطفال فى مكان واحد ، فإنك تجد أحدهم يتزعم الباقين ويقودهم ، ويصدر إليهم أوامره ، ويملى عليهم إرادته . وللسيطرة مظاهر كثيرة ، فقد تكون بالقوة الجسمية ، أو بالقوة المعنوية والفكرية . وقد يكون الإنسان رئيساً فى وقت ، وخاضعاً فى وقت آخر ، كالطالب يتزعم أقرانه بينما ينقاد لأمر المدرس .

والانقياد قد يكون عن حب أو خوف ، فالوالد كثيراً مايذعن لرغبة ابنه الصغير ، وذلك عن حب . ويقول « هو بس » إن الدولة تقوم على الخوف ، وهذا صحيح إلى حد كبير ، فالإرهاب وسيلة من وسائل الحكم ولكن حكومات الإرهاب

لاتقف على أقدامها إلا إذا كان الشعب راضياً عنها ، إذ أن معنى انقياد الشعب لحكم ديكتاتور هو رضاه عنه .

والانقياد فطرة طبيعية أيضا ، ويكفى أن تنظر إلى الكلب الذى يزجره صاحبه فيقعى ويجلس بجانبه ، فهو لا يجرى ولكنه ينقاد فى خضوع . وإذا نظرت إلى جماعة من الطيور الداجنة كالدجاج ، فإنك تجد أنها ليست مجموعة من الأفراد كل فرد وحدة قائمة بذاتها ، يعيش منفصلا عن غيره ، بل هى جماعة يسودها نظام وحكم ، فهى تتزاحم على الرياسة حتى إذا تغلبت إحداها بحكم قوتها تصبح زعيمة الجميع ، ثم ينقاد لها الباقون بالإجماع .

النزعات العامة

وقع فى اصطلاح فئة من العلماء أن يفصلوا بعض الميول الفطرية العامة عن الغرائز ، لأنها تفقد شرطا من شروط الغريزة ، وهو أن الانفعال لا يصحبها . هذه النزعات العامة هى الإيحاء ، والمشاركة الوجدانية ، والتقليد[1] . وهى كلها نزعات اجتماعية نتيجة وجود الإنسان فى المجتمع ، إذ لا بد من تفاعل يتم بين الناس حين يتصلون فى المجتمع ، وهذا التفاعل عبارة عن تأثير وتأثر .

هـذا التأثير إما أن يكون إدراكيا ، أو وجدانيا ، أو نزوعيا ، تبعا لتحليل الظواهر النفسية الذى سبق . فالتأثير الذى تغلب عليه الناحية الإدراكية يسمى الإيحاء ؛ وذلك الذى يتميز فيه الوجدان يطلق عليه المشاركة الوجدانية أو التعاطف ؛ أما التأثير الغالب فيه النزوع فهو التقليد .

---

(١) Suggestion, Sympathie, Imitation.

الإيحاء :

من طبيعة الإنسان أن يقبل أفكار غيره ، و يصدق بها ، وليس العكس . فإذا رويت قصة لأحد أصدقائك فإنه يصدّقها ، ولا يشك فيها إلا إذا استبان مآخذ تؤخذ عليها . والإنسان قليلا ما يُعمِل فكره فى الآراء التى تقدم إليه ، أو يقابلها بعضها ببعض ، هل هى صادقة أم كاذبة ، صحيحة أم خاطئة ؟ وهو أكثر تأثراً بالآراء الشائعة ، والعرف السائد . فاستعداد المرء للتأثير والتأثر بالأفكار والمعتقدات هو ما يسمى بالإيحاء . وقد يكون الإيحاء مقصوداً ، وقد تتأثر به عفواً .

يتفاوت الناس فى قبولهم للإيحاء حسب قوة إرادتهم وتفكيرهم ، وحسب شخصية صاحب الإيحاء . فإذا فطن الإنسان إلى التأثير الواقع عليه فإنه يعارض فى ذلك ، ولكنه بالرغم من هذه المعارضة قد ينتهى به الأمر إلى قبول الفكرة .

و يكون الإيحاء قوياً إذا كان صادراً عن شخصية كبيرة بالنسبة إلى من يُوحَى إليهم كالملك والرعية ، والزعيم والشعب ، والرئيس والمرؤوس ، والمدرس والطلاب . وترجع قوة الشخصية إلى الثروة أو الجاه ، أو اللقب أو المركز أو العلم .... إلى غير ذلك من الصناعات التى تضاف إلى الناس . و يجب أن يتوفر فى المُوحِى الإيمان والثقة ، ولذا قيل إن الإيمان بالنجاح نصف النجاح . و يجب أن يصحب الإيمان بالشىء الأمر به ، مصوغاً فى صيغة الجزم . وللتكرار أثر كبير فى قبول الإيحاء ، لأن تكرار الأشياء يسهلها حتى فى الأمور العقلية ، ومن هنا كان الإعلان فى حاجة إلى التكرار المستمر . وخضوع الإنسان للمعتقدات أثر من آثار الإيحاء .

والإيحاء العكسى هو الذى ينتج عكس المقصود . فقد يريد البائع أن يوحى إلى المشترى فكرة جودة البضائع ، فيغالى فى مدحها ، فيزهد المشترى فيها .

المشاركة الوجدانية أو التعاطف :

هى انتقال الانفعالات والعواطف من شخص إلى آخر . وهى نزعة فطرية موجودة عند الطفل والحيوان الراقى . فالطفل يصيح إذا وجد غيره يصيح . والقردة تفرح وتتألم فرحا وألماً مشتركين . وينتقل الانفعال من شخص إلى آخر كالعدوى . فإذا وجدت شخصا خائفا ، فإنك تخاف أيضا دون سبب ؛ هذا التعاطف هو أساس العزاء عند الموت ، والتهنئة عند الفرح . والمشاركة الوجدانية إذا شاعت فى المجتمع أدت إلى وحدته . وارتباط الأمة هو نتيجة اشتراك أفرادها فى آمال أو آلام واحدة . والمشاركة الوجدانية أساس كثير من أفعال البر ، فقد ينكب بلد بالزلازل أو العواصف ، فيسرع الناس من جميع الجهات إلى مساعدة أهله ، كما لو أن الكارثة حلّت بهم .

التقليد :

إذا اجتمع عدد من الطير فوق شجرة فيكفى أن يطير أحدها حتى يطير الجميع ، وإذا عوى كلب عوت باقى الكلاب ، وإذا جرى طفل جرت جميع الصبية دون أن يعلموا لماذا يركضون . ومن المناظر المألوفة أن تجد الطفل الصغير يتناول العصا ويمشى بها كما يفعل أبوه . فهناك نزعة عند الإنسان تدفعه إلى تقليد حركات الغير وإشاراته ولفتاته وأصواته وأعماله . ومن غرائب المحاكاة التى لم يعرف تعليلها على وجه التحقيق حتى الآن التثاؤب .

ووظيفة التقليد عظيمة الأهمية ، إذ بها تكتسب بداية الأعمال الجديدة . وإذا كان الإنسان سلسلة من العادات ، فمبدأ العادة غالباً يكون منشؤه محاكاة الغير . فالطفل حينما يتعلم الكلام أو الكتابة يكتسبهما عن طريق المحاكاة .

ويعلل بعض العلماء ميل الإنسان إلى التقليد بأنه يسعى إلى الحصول على مدح الغير. ومن ذلك أن الطفل يقلد المحيطين به ليحصل على تقدير الناس له. وليس هذا التفسير صحيحاً على الإطلاق، بل يرجع التقليد إلى طبيعة الانقياد، إذ أن الإنسان يحاول دائماً تقليد من هو أعظم منه شخصية. وهناك تعليل آخر يقوم على قانون الاقتصاد فى الجهد، ومن مظهر هذا الاقتصاد عدم التفكير، فيكتفى الإنسان بأن غيره قد سبقه إلى التفكير فى الرأى ليأخذ هو خلاصته، فإذا كان صاحب الرأى أو العمل ذا قيمة، كان هذا أدعى لقبولهما، وإذا اعتنقت الجماعة فكرة أو عملاً كان هذا سبباً لاعتناقهما.